

الخطاب الديني بين ديناميكية المفهوم وسرعية الاختلاف

الأستاذ : طيفور حميد

جامعة وهران 02 .

إن الدوافع التي ساقطنا إلى الكتابة في هذا الموضوع هي التظاهرات الخفية للمقروء و المسموع في حياتنا اليومية و قد ارتأينا في هاته الورقة و التي كانت " الورقة البحثية - " و هي محصلة لجهود بحثي لعمل فرقة بحثية حول ممارسات الخطاب الديني في الواقع المعاش اليومي، نظرا لما يتم إرساله من قبل الديني¹ من رسائل مشفرة أو مبسطة - سواء قمنا بتحليل ما يعطيه في دلالاته الثابتة أو المتحركة - و نوعا ما هي محاولة من أعقد المحاولات في فهم تلك البنى والدلالات التي تومئ بها هاته الاخيرة ، وخاصة أنه تم التعقيد لمفهوم الاغتراب² للمعنى ، الذي يفهم على انه دخيل على الفكر على اعتبار أن ما يتم الاشتغال عليه هو ذاته الخطاب الذي مورس عليه التأويل في الثقافة الإسلامية بل يصبح يمارس نوعا مغايرا للقراءة كون أن الإنسان هو المتلقي، ولذا لا يعود يفهم لا ذاته ولا ذوات الآخرين في حوار داخلي . و مما يزيد الطينة بلة هو التأسيس لمفهوم الإقصاء والتأسيس للتلانجيسيا المؤسمة التي تزهو بنفسها، ولذا "فحقيقة" الخطاب و"فاعليته" و"خصائصه" و"وظيفته" هي من الأمور التي تسترعي الانتباه لها تدخل في تصورنا عنصرا مميزا في التحليل ، و بناء النتائج عليه ، فإننا سنحاول أن نقدم في الصفحات التالية بعض الملاحظات الخاصة ب :

1 - مستوى قراءة الذات لما يعطى لها من خطاب المسموع و المكتوب والذي تجاوز لزمان والمكان .

2 - في مستوى القراءة و التحليل و ما معنى العيش في جدل السلب والإيجاب.

وما مستوى تأثير هذا الأخير على الوتر المرجعي المفاهيمي الثقافي وما مفهوم المنسي أو المسكوت عنه في الخطاب الذي يثير كل مرة ثورة داخلية .

ما معنى والرؤية المسبقة لخطاب ما و كيفية التأسيس المشرعن للآخر ما مفهوم الهوية في ظل ما تتمثل فيه من الخطابات ؟ .

إن قضية الخطاب الديني، وما يرافقها من جدل عن الإصلاح والتجديد والحداثة والثورة، في الفكر الديني أو عليه، وهي جميعها مصطلحات ومفاهيم استخدمت في معرض الحوارات الفلسفة التاريخية، والتي لا زالت فاعلة إلى الآن. لذلك أقول لا بد دائما من فض الاشتباك بين المصطلحات والمفاهيم، حتى تقدم المعنى المقصود منها، إلى القارئ وهي محاولة من أي كاتب يخوض هذا المجال، إلي رفع ستائر الالتباس، عن مفاهيمه مصطلحاته³، كما يفهما أو يفسرها إجرائيا أو يتبناها كما هي في أي إنتاج فكري، إن كان مقالة

آخر وهو جعل هذا الخطاب بديلا عن الخطاب السياسي الرسمي للدولة من أجل هز قواعدها. ويدعو إلى الرفض الحاكمة البشر باسم مفهوم "الحاكمية لله"⁴ ، وإلى عصيان القوانين المدنية بدعوى تطبيق الشريعة الإسلامية، في مقابل الخطاب الإعلامي الرسمي الذي يدعو إلى طاعة أولي الأمر والقيم السلبية كالصبر

والسعي لفهم هذا النوع من الخطاب الديني من مفاهيم مثل "التجديد
الاجتهاد التطرف التكفير السلطة النص...."، أي في نمط بنائها لدلالاتها
ووقعها ، أمر لا يمكن أن يتم خارج ما هو معروف من أن العلائقية تكمن
حتى في الإرسال الدلالي والثقافي لأرضية معرفية ما - الاصولوية أو غيرها
من الرؤى المعرفية في فهم النص و فهم الواقع " - و قد يتجاوزها إلى المقول
المشفر ، فالدلالات داخلها لا تنبثق من الأشياء التي ترسم نوعا من الإحالة
إلى المكانة في الوجود ، بل هي وليدة العلاقات التي تدرك ، باعتبارها المهد
الذي منه يمكننا القول أن أي دلالة لأي ما يظهر في الوجود يكون هو مرجعه
. فالنظرة هي التي تؤسس لذا فهي بناء عليه تنظم و تعاود الفهم والقراءة.
ولهذا فالنظرة هي الموقع الذي يعمل على موقعة ما يكون موجدا مسبقا في
الوجود الممكن رؤيته .

والنظر إلى هذا العصر والذي يتضمن في داخله تلك الجدالات الفكرية
والتي دارت بين عدة منظورات ساهمت في الاجتهاد وإعطاء قراءة للنص
ولكن الأمر الذي لا يمكن تغافله كذلك هو أنها أنتجت نمطا من المفاهيم التي
يمكن القول أنها أدخلتنا في دوامة من الضياع و لنقل أن الصراع الذي دار
حول المرجعية المعرفية للاجتهاد كفعل ثقافي في الفهم و إعطاء تأويل معين بناء
على " الفكري الاجتماعي " " " و هل هي للعقل أو للنقل نحتكم؟ وحتى
نفهم طبيعة الصراع الذي دار هو حول عدم نفي كلتا المرجعيتين المعرفيتين بل
كان يدور حول تحديد "أولوية احدهما دون إغفال الآخر " 5 .

ومن هذه الزاوية ، فإن السكن الدلالي " للنص يتجاوز الإدراك
الظاهري ، فلا يجب الخلط بين النص كمفهوم للوحي المنزل و ما يتجه
البشر من حاكميه له و تأسيس للسلطة المنطوقة والممارسة لنمط ثقافي و فقا

لهذا التسلط و هذا وتبعا و قوانين التدليل "6 ، فهذا الأخير أي " خطاب الاجتهاد مؤسس انطلاقا من خلخلة أساسات لنظام المعرفة التسلطية والنزوع إلى اليقين و إعادة رسم حدود التعريف جديدة للمعرفة 8 ، إن هذه الأخيرة تتجاوز ما هو المباشر وهو ما تم تقديمه من مفاهيم متتجة من رحم النص المقدس وعلاقة الإنسان به لكونه رابطة مقدسة بين الإلهي وبين الإنساني ، لتكشف عن خبايا التوظيف و الذي كان فيما مضى ، بل إن مفهوم الاجتهاد الذي نحن نعمل على تحليل الأرضية المعرفية المؤسس عليها تجعلنا نقول إن الحديث عن الاجتهاد في الزمان و المكان الحاليين هو من اعقد المسائل نظرا لتجاوز ذلك الخلاف الذي دار في السابق و أخذه بعدا جديد ، و لنقل انه الأرضية المعرفية التي نقف عليها اليوم تنتج مفاهيم أصلا نعيش معها و بها ديناميكية و عليه فكما يقول الدكتور محمد حسين فضل الله و هذا في مقال له أثناء حوارهِ من قبل احد المفكرين العرب : إجابة عن نص السؤال التالي : " عندما ندرس اثر الزمان و المكان في الاجتهاد فإنه علينا أن ندرس شخصية المجتهد ، لان أية شخصية لا بد من أن تخضع بطريقة شعورية أو لا شعورية للمؤثرات التي تؤثر في تكوين عناصرها سواء كانت ثقافية أم عاطفية أم شعورية "9، وهنا يتعين علينا أن نرقب قول المفكر الذي يعني قولاً بليغاً وهو ما مدى صحة المجتهد في الفهم إذا كانت البنيات المعرفية التي يستند عليها هي التي تعزز ما يقول بالركون إليها معتقداً أنها هي التي كونت وعليه فهي التي تحرك وعيه لا شعورياً وهذا ما يدعم مقولة عابد الجابري أن العقل العربي تحكمه ثلاثة محددات العقيدة القبلية والغنيمة وان كانت في الفكر السياسي إلا أن ذهنية المتحركة تعتبرها أيضاً الاجتهاد سياسة من نوع آخر ، لذا فتأثر الإنسان

بالزمان والمكان له علاقة بما ينوي الاجتهاد فيه ، فمثلا قد نورد هنا مثلا واضحا على ذلك من خلال ما عرف بفتوة حلق اللحية و التي شاعت في زمن المعصوم ، وسواء كان العلماء قد أجازوا في بقائها أو تركها بناء على النصوص المقدسة في الكتاب القران إلا أننا لا ينبغي أن نغفل البيئة الاجتماعية التي مشا فيها زمن المفتي هي التي ادرت من منطلق فكري ما ولا مشعور به داخل في تركيبة الذهنية له إلى إطلاق الفتوى مراعاة للأحوال ، وعليه فهنا مفهوم الفتوى يعيش ديناميكية معينة بين الأخذ بآراء النص أو تركه وعدم الاجتهاد فيه ، و في الغالب الأعم ان المجتهد يقع تحت تأثير حلول بيئته و مجتمعه و يؤثر هذا على استنباطه الشرعي¹⁰ .

إذا اعتبرنا أن تطور العلوم الإنسانية أو حتى العلمية ما عدا الإنسانية في جميع الأمور البحة الصرفة فإنه يتم النظر إلى أن إمكانية تجاوز الموروث أمر حتمي ولكن في هذا التجاوز نرى أن هناك تجاوز حتى على الاطار المعرفي الذي اطر الخطاب بوصفه خطاب ديني ، فمثلا نقول أن استنباط الأحكام الفقهية ، لذا فكما يرى الدكتور " محمود حسن فضل الله من أن " فالقاعدة التي نؤمن بها انه إذا تعبدنا الشارع بشيء و صح لنا تعبدنا متنا وسندا فإن علينا أن تعبد به ، لكن إذا وجدنا دليل علميا قاطعا على ذلك فلا بد لنا من تأويله ، و يأتي دور العلم في هذا المجال " ¹¹.

الكتب التي كانت مفتوحة هي مسألة الهوية ، فلسفة النوايت الهوية وقضاياها الإسلام و الحداثة ناصر حامد أبو زيد النص السلطة و الحقيقة ، التجديد و التحريم و التحريم حيدر حب الله مشروع تجديد التفكير الديني من الفلاش ديسك الفلسفة أداة للحوار أو وراء الأوهام في الثقافة و الحوار الدرس القرآني ، الجهل المقدس قراءة النص الشرعي هو محرك القتال والذي

لا يزال بسبب هذا الفهم الدوغمائي الواثق بنفسه هو ذاته ما يؤسس لنفي الآخر الغريب عن أية بلد و ليس عن فقط عن النمط المرجعي للثقافة و التي هي نفسها حجر البناء للهوية .

فما يمثل من نظام في المعرفة والتي تحتاج إلى تأسيس في كل فترة زمنية " فقه الاجتهاد وهو معرف عند بعض المفكرين بالرؤية النقدية لمفهوم النص " والذي لن يكون هو المفهوم في ذاته بل وليس هو المتقد بل ما فهم منه في سياق ثقافي مكاني وزماني محدد و هي لحظة إنتاج المفهوم ، "المعرفة " ، السلطة " ومن زاوية النظر هاته يمكن تحديد الإرسال المعرفي " المكتوب المسموع البصري " باعتباره حمولة ثقافية متداولة بين الناس ، وهي أيضا استدعاء الموضوعات و لذا فالنقد هو البحث في قبلات المعرفة ووشروط إمكان الفكر و الاعتراف و الاجتهاد .

إلا أن المفاهيم في تبدل مستمر و هذا تبعا لتغير الظروف و وقوف المفكر على أرضية تعيش ديناميكية مفاهيمية تحركها بنى متغيرة هي بذاتها فمثلا ، نرى انها تشيع داخل بعض الخطابات ظاهرة التكفير للآخر .

و لربما تكمن الإجابة في أن إنشاء الدولة القطرية قد ساهم إلى حد ما في تعزيز هاته البنية المعرفية و لم تكن من رحم الشرع لان الحكومات كانت و التي لا زالت تستبعد الآخر و هذا انطلاقا من مؤشرات تبدأ في التشكيك في الآخر ربما يمكننا القول أنها معادل موضوعي بالنسبة لنا اليوم طلاب الحقيقة و هذا بتوجيه التهمة الزندقة و الظلال إلى غيرها إلا أن الفاطن الذي يلاحظ أن الفقه الإسلامي ربما كان يمارس نوعا التسلط و الذي يعيش هاته الأنظمة التسلطية فهو أن مارسها يكون مضطرا إلى ذلك ، عندما نكون بإزاء التكلم إنتاج المعرفة أو استعادة و قارئتها قراءة متتجة فإننا نروم

بذلك الإبعاد لتلك المفهومات لتبيان تهاافت النظريات أو المذاهب أو المقالات أو الروايات¹² ، و نقصد من ذلك أن نعمل على إعادة قراءة للنصوص والتجارب لسبر إمكاناتها و استنطاقها عن مجهولاتها ، ولذا كما يؤكد د. على حرب - أن ، بل هو قراءة للمستقصي للمجهول والمغيب والمستبعد .

ولهذا فإن ما يمكن أن نطلق عليه دلالة النص بوصفه إمكان مفتوح ومجال للبحث هو في ذاته معادلة لبنية ذهنية حسبما يقول "ايكو" تشابه مع ما نعرفه أنها تحيل عليه .

فإذا تم النظر إلى النص بكونه خطاب و خاصة الديني "منه" والذي ينتجه البشر في عملية التفكير نقوم ليس فقط بقراءته قراءة إيديولوجية ، ولا نقراه بقصد دحضه أو إلغائه كما قلناه سلفا في البداية بل تكون القراءة منتجة وفاعلة و هذا بالكشف عن إمكاناته و الحفر في قاعدته المعرفية و الكشف عن بداياته و مسلماته ، لذا القراءة لا تكون مجرد قراءة عقائدية أو قراءة ابستمولوجية علمية ننظر فيما توافق المشرع الرباني ، بل نتعامل معه على أساس وقائعته بالذات أي من حيث كونه واقعة نصية خطابية لديها مسلماتها و تفرض نفسها علينا باسم الحاكمية .

أي بمعنى محاولة فهم الخطاب وفقا فهم و قارئ لأحوال القصوى للوضع البشري وهي قراءة من منظور انطولوجي ، وفي هاته الاستعادة للإمكانات الخطاب الديني ندخله في التناقضات التي هي في صلب المعنى وهي ما يشكل منطق المرسل إلينا ، و هذا سواء من ما دأب على توظيفه من اللغة أو البعد الجمالي في توظيفه و يفني استشهاد كونه فضاء مفتوحا للتأويل .

توصلنا إلى القول انه إذا كان النص مفتوحا على عدة تأويلات فإن أهم ما يعترض الذات العارفة هو النسيج المغلق عن ذاته ، بعبارة أخرى نرى أن النص وتعامل معه على انه معين لا ينضب و انه حمال أوجه إلا إن التطعيم بالرؤية التي تريدنا تبقي على ذاتها هي فقط " الأصح والآخر المخطئ " ، نوعا تشبه إلى حد ما مركزية بأيديولوجية النص وما يحول معه المعرفة إلى جماد و ليست حية مليئة بالدلالة تحيل إلى الاجتهاد في الفهم والتفقه في الدين ، فنرى مثلا أن هذا الخطاب المؤدلج لا ينظر إلى النص على انه رأسمال ثقافي بل على انه وسيلة و مطية لها أبعادها المعرفية الأخرى ، التي تحول دون المرء واستكناه الحقيقة ، لذا فالخطاب هنا يختزل ويقولب و يتحول إلى منظومة عقائدية مغلقة والى نسق فقهي محكم البناء لا احد يجراً للدخول إليه

ولذا فالتعامل مع النص على انه كذلك نص لغوي كما فعل بعض المفكرين ومحاولة إعطاء قراءة علمية بالمناهج الغربية أو غيرها التي تقصي انه خطاب يمس كيان الإنسان ويسس لذاته في الواقع كونه عبدا وفيها من الإعجاز ما يدل علة ذلك ، أي انه نص يتتمي إلى علوم اللغة و فقط بل يتجاوز المعنى الذي اخذ به .

وأولى ما نبغي تحليله من تلك البنية الذهنية التي تقف عائقا في سبيل فهمنا لما قيل هي مفهوم الذي جاء به الجابري "" و وظيفه في قراءته للعقل العربي و الذي نرى انه ، يؤسس لمنطق الإقصاء و ينح والى عدم الاعتراف و لفهم هذا سوف نحلل بنية هاته العقلية :

إذ نجد انه الخطاب نفسه ليس محكوما كما ذكرنا سلفا إلى ذاته بل توجد منطق يدخله في تيه التوظيف منه القبلية و العصية مع أن الرسول أشار إلى

انه لا عصبية في الإسلام إلا أننا نجد أن من يمارس هذا النوع من الخطاب رغم ما فيه من الاجتهادات التي نغفلها في مجال الرؤية على ما طرأ من نواحي الحياة من مستجدات ، مع ذلك يقصي الآخر " المذهبي ، لا اعطي أحقية في الفهم الآخر و يعمل على التأسيس لنص التهميش ، و لعل ما عني عبد الله الغدامي بقوله من أن هناك مفهومين يحكمان ما نعانيه من اضطراب و هما مفهوم القبيلة و مفهوم القبائلية¹³ ، و نحن ندرس في سبب هذا التمييز بينهما إلا أننا وجدنا انه من المفيد الإشارة إلى ما قاله على اعتبار أن التفريق بين المفاهيم ضروري و خاصة في الفترة الحديثة و هذا وفق ما تستدعيه ظروف الاجتهاد و الذي كذلك يتأسس في فهم الآخر : المذهب و الذي في نظر الغدامي يكون حاملا في طياته لمعاني " الاجتهاد ، و النظر في الأصول النظرية لمذهب من المذاهب الأربعة ، و يمكن القول كذلك أن وفي الاصطلاح الكلامي " ما ذهب إليه وأخذ باعتقاد فهمه جماعة من المسلمين، في العقيدة أو في الشريعة؛ وذلك على أساس ترجيح أدلته على أدلة غيره " ¹⁴ .

والمفهوم الثاني هو مفهوم الأكثر تداول على السنة الناس ولا يجدون الركون إليه كجدار للدفاع عن ذلك الموروث الثقافي ، وهي من العوامل المساعدة التي تهدم رؤية الآخر بسبب هذا الركون إلى الجمود وإلى خطاب الذي يحكمه منطق الماضي ولذا فهاته الفرقة الناجية و لنقل ما يطلق عليها اسم ، مذهب أهل السنة ، أو الفرقة الناجية أو مذهب السلف ، كلها مفاهيم تعزى إلى إيضاح ذلك الجانب المسيج بالفهم الضيق الذي لا يقبل الآخر، وعندما لا يتم القبول فهذا معناه ان البنية النص الذي يعمل على ممارسة التأويل المضاعف للنصوص الدينية و خاصة ما تعلق منها بمذهب ما يجعلنا

نقر بحقيقة موجودة في المخيال او الوعي الجمعي و تسري في كيان كل إنسان الا وهي السلطة ، والتي ترفض الاخر وتغذي عاملا الأولان التوظيف السياسي او القراءة الدوغامائية للنص مع الاحتفاظ و عدم ممارسة نقد على ما يقرأ و ما يكتب و لذا فأولى بدايات الركون الى ما هو موجود سلفا وانتشار طبيعة الإقصاء هو منطلق سلطوي والذي يصبح لا يعترف لا بالأخر و لا بالمستجد الاجتهادي في الأوضاع الراهن ولا يمكن الحديث عن علاقة المثقف أو رجل الدين عن تلك العلاقة المتأزمة بينه و ين السياسي بل يكون الحديث حول مدى راهنية الاجتهاد والتأسيس لفقه الاختلاف الفقهي والاستنباط الأحكام ، والحديث كذلك حول مفهوم أزمة المفاهيم التي تنتج من رحم القراءة النص الديني وغالبا ما تكون قراءة مبنية على أساس التناظر أو التفرقة بين المتناظرين و هذا ما يفتت و يجعل تلك القراءة تركز إلى ما هو مقصي حتى لا يتم التنازع المعرفي .

هذا الإلغاء للآخر المجتهد والذي يخرج تلك الطريقة من الرقعة الجغرافية وحتى وإن كان يقيم معه بل يجعل عليه حارا معرفيا ، و وهو بهذا يؤسس للأصولي "الارثدوكسي" 15 ، فهذا الاحتكار للمعرفة في نظره هو كذلك يؤسس للعنف كشكل من أشكال الخطاب العنصري أو الاقصائي ، ولذا لا تصبح قراءة النص حقيقة من نتاج و هنا لا تصبح خارج السلطة ، ولا مجردة منها و إنما تصبح ناتجة عن الزاميات مجتمعية عدة ، وهنا لا نتحدث فقط عن السياسي بل نتحدث عن تلك البنيات السلطوية التي تشكل وعي المجتمع مثلا السلطة الثقافية تلك القادمة من الخارج و إلى حقيقة تمتلك تلك الممارسة السلطوية و هذا من خلال تظهيرها لنوع وحيد من اللغة أو المعرفة أو الكتابة بحكم امتلاكها لوسائل الإعلام .

ونخلص من هذا الحديث عن إشكالية السلطوي و المعرفي و دورهما في الإقصاء "" المختلف المجتهد و الأنا الوثائق ومغلف بنسيج الدوغمائية وهذا من منطلق "" التأويل المضاعف للنصوص 16.

ومع ذلك نلمس من اجتهدوا في فهم تلك البنية و الخروج من الأزمة ومنهم المفكر محمد أركون إذ لا يخفى على أي احد انه لم يقصي مفهوم الاجتهاد ولكنه حاول الخروج به من دائرة الفهم التقليدي ليرى انه يجب أن نفهم أن تجديد خطاب الاجتهاد سيعمل على زعزعة الأسس والحقائق الشعبية وتصحيح مختلف العادات الأكثر رسوخا، وإلى مراجعة العقائد الأكثر قدما 17 .

ويتم تجاوزه عن طريق النقد الحديث للعقل و اكتشاف المهمة المنوطة به ، لذا أركون يعمد إلى زعزعة الشروط النظرية الاجتهادية و حدودها و ليخرج بها من مجال اللاهوتي - المقتن - إلى مجالات التي لم تعرف إلى الآن من قبل هذا العقل ، ولذا فهو يرى انه يجب أن يمارس خلافا إلى القاعدة المعروفة ليتقل به إلى دائرة المؤول ومعرفة ظروفه وأحواله الشخصية وانحرافاته الفكرية. فالاجتهاد لزال رهين العقل الكلاسيكي ، لذا فاركون لا يكتفي النقد من مرجعية فكرية غربية و لن على العكس أن ما تتم معالجته من قبل أركون هو تحليل تلك المناخات الفكرية والثقافية والاجتماعية والتي لها مستوى من الأهمية مشروعا بثقل نقد العقل الإسلامي وعليه يجب أن نحل تلك العقدة التي ما زالت تغذي الترابطات النفسية وتلك العقائد والتصورات مبنية على ما هو متوارث وتقليدية .

